تعلموا كيف تعاملون الله

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٣١م

نحن أمة علّمها الله تبارك وتعالى أن تُعامله قبل أن تُعامل المحسوس، وما يُميّز العقيدة الإسلامية والحال الإيماني أن العبد يتوجّه إلى الله في حياته وسلوكه ومعاملاته قبل أن يتوجّه إلى الأسباب، وقد كان الصدّيق رضي الله تبارك وتعالى عنه يقول: **"ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله".**

هكذا تأسّس الإيمان في سلفنا الصالح، وهكذا أدرَكوا بفطرتهم السليمة وإيمانهم المُعمَّر أن الذي بيده كل شيء واحد لا إله إلا هو.

هكذا ربّى الإيمان تلك الأمة، وهكذا وجّه القرآن هذا الجيل.

واليومَ ننتسب إلى الإسلام، ونقرأ القرآن، ونتهيّأ لشهر رمضان، ونُمجِّد شهر شعبان... لكنّ المحسوس يقترب من قلوبنا قبل حقائق الإيمان.

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} [النجم: ٤٣-٥٦]

إنه نصٌّ يستغرق ما بين الأرض والسماء، ويُشعر الإنسان أن الله سبحانه وتعالى بيده أرض وسماء، وبيده أحوال الإنسان، وبيده تقلّبات المجتمعات...

فهو الذي {أَضْحَكَ وَأَبْكَى} وما حال الإنسان في سروره وسعادته إلا بيد الله.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} أمات القلوب بالضلال، وأحياها بالإيمان، وأمات الناس في أجلٍ مُسمّى، ويحييهم للحشر والحساب.

وهو الذي {خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى} لتنشأ من خلال هذه السُّنّة الكونية أمة إنسانية تنتشر على وجه الأرض.

{مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} وكيف تكون هذه النطفة (الأنثوية أو الذكرية) مؤثِّرة إلى درجة تتعمّر من خلالها الأرض؟

لا.. فالخلاّق هو الله، وإنما هي أسباب مُركّبة من حِكمة، فحكمة الله سبحانه وتعالى سِتارٌ على قدرته.

{وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى} فما من نشأة إلا وهو مُنشئها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} فما من ثروة مالية ولا من مال يُجبى أو يُجمع إلا وهو سبحانه وتعالى خالقه، وهو رازقه، فهو الذي رزق به الخَلق فأغناهم، وبعد أن أغناهم أقناهم، أي تحمّع المال لديهم وتكدّس بإذنه.

{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى} فهو ربّ النجوم التي تنتشر في السماء، والتي يتوهّم كثير من الناس التأثير لها وهو يرى الصلة التبادلية بين الأرض والسماء، كما عليه أهل التنجيم، وما أدركوا أنها أسباب ومُسبَّبات، والله من ورائها محيط.

ثم ذكر المجتمعات التي تمرّدت على الله سبحانه وتعالى فاختار أطغاها وأشدها قوة، حتى يُزيح الوهم عن القلوب من أن قوةً من القوى التي توهم الناس أنها عظمى تستطيع أن تؤثِّر، وما هي إلا سببٌ من الأسباب.

واليوم أصبحت لغة الدولة العظمى، والقوة العظمى، والسلاح الأعظم... لغةً متداولة بين المسلمين، لكن الله سبحانه وتعالى وهو يوجّه القلوب قال:

{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى، وَثَمُودَ} أي الأمم التي كانت لها حضارات، وكان لها قوة، وهيمنت على الأرض.

{وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى، وَالْمُؤْتَفِكَةَ} والمؤتفكة: مدائن لوط عليه الصلاة والسلام، فقد انقلبت وصار عاليها سافلها، فإذا قلت: أفكت الشيء، أي قلبته.

{أَهْوَى} أي حملها جبريل ثم هوى بها إلى الأرض، فجعل عاليها سافلها، فالمدن بيد الله سبحانه وتعالى.

{فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} غطّتها الحجارة المنهمرة عليها من السماء.

وختم فقال: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} فبعد هذا تشك أن شيئًا من الأشياء يخرج عن قبضة الله؟

لكن حال الإنسان الجاهل مُعبَّرٌ عنه بقوله تبارك وتعالى:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا} أي تجعلون مع الله مؤثِّرًا.

{ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} فما يُستثنى عالَمٌ من العوالم من قبضته.

{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ٩-١١]

فانضبط الكون بأمر الله، وإذا قال الله سبحانه في كتابه: {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٧٦] عبّر عن الخمول والكسل والتقاعس عن أمر الله، لكن الأرض التي من طَبْعها الخمول والكسل انطوت في النظام الكونيّ، وخالفت طبيعتها وجبِلّتها، وانتظمت في سلك الطائعين.

إنه درس للإنسان الذي يجعل مع الله أندادًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك هي المقدِّمة العَقَدية التي تُحفّزنا من أجل أن نكون أصحاب معاملة لله، قبل أن نتعامل بقلوبنا مع المحسوسات.

وبعد هذه المقدمة العقدية، تعالوا بنا حتى نرى بعض النماذج التطبيقية التي فهمت عن الله تبارك وتعالى، والتي تعلّمت كيف تعامل الله:

١ - نوح عليه الصلاة والسلام: الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم في الليل وفي النهار، ماذا فعل بعد ذلك؟ التجأ إلى معاملة الله تبارك وتعالى، وتوجّه إليه بالخطاب والنداء:

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون: ٢٦]

٢ - إبراهيم عليه الصلاة والسلام: الذي وضع هاجر وابنها إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع.

أين العادات؟ أين الأسباب؟ أين القوانين المادية؟

إنها امرأة وطفل في وادٍ غير ذي زرع، لكنه عامل الله، وتوجّه إلى الله وقال:

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} لكن إذا اختفى الزرع فإن الرزّاق حاضر.

{عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧]

وهاهم الناس من كل فجٍّ عميق يشدّون الرحال إلى الكعبة، إلى ذلك الوادي الذي كان غير ذي زرع، حتى أصبحت أمَّ القرى، وأصبحت القلوبُ تحنّ إلى لقائها..

هذه هي نتيجة معاملة الله.

٣ - يوسف عليه الصلاة والسلام: الذي وقف أمام محنةٍ شديدةٍ صعبةٍ يتهاوى أمامها الشباب، وهو الشابّ الفتّان، ويحكي القرآن عن محنته تلك، وامرأةُ العزيز تقول لصاحباتها: {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} [يوسف: ٣٢]

فتوجّه يوسف إلى معاملة الله، وهو في محنة القصر، وفي محنة جذب الغريزة.

(وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ).

امرأة العزيز بسلطانها وهيمنتها وجمالها ومُلكها.. تضع يوسف في المحنة، فماذا فعل يوسف والأسباب منقطعة؟

توجّه إلى معاملة الله: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٣-٣٤]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يخيب من يُعامل الله.

٤ - زكريا عليه الصلاة والسلام: الذي احتاج وهو في كِبر سنه إلى الولد، وأين قوانين العادات؟ أين قوانين الأسباب؟ يقف زكريا في المحراب يُناجي ربّه، والأسباب منقطعة، وامرأته عاقر.

قال سبحانه في سورة مريم: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} [مريم: ٢-٤].

وبعد ذلك نقرأ في سورة آل عمران: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى} [آل عمران: ٣٩] إنها معاملة الله التي لا تخيب.

٥ - موسى عليه الصلاة والسلام: يحكي القرآن عن معاملته لله: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ} إنه الشاب الممتلئ حيوية وقوة وأمانة، والمحتاج إلى الزوجة الصالحة، فهل عامل المخلوقين كما يفعل الشباب اليوم حين يحتاج أحدهم إلى الفتاة الصالحة من أجل أن يتزوجها، أم أنه توجّه إلى من بيده مقاليد السماوات والأرض؟

{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} أنا الفقير إليك، والمحتاج إليك، والمضطر إلى كرمك.. وسرعان ما ظهر أثر معاملة موسى لربه:

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} [القصص: ٢٣-٢٥]

٦ - أمُّ مريم امرأةُ عمران: عاملت ربها: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا}

أريد يا ربّ أن أرى ناتج بطني هذا مخلوقًا حرًّا من سواك..

أريده عبدًا لا يعبد غيرك، ولا يتوجّه إلى سواك، وأريده محرّرًا من الرِّقّ لغيرك..

أريده عبدًا خالصًا لك يا رب..

إنها تعامل الله.. هذه رعاية الحمل، ورعاية الحمل اليوم أصبحت المراقبة بالإيكوغرافي واستعمال الفيتامينات.. أما مراقبة الحمل عند امرأة عمران فكانت في معاملة الله، لأنها أرادت ناتج الحمل مخلوقًا سيّدًا.

واليومَ يقول العالَم كلّه: السيدة مريم، لأنها لم تكن تتوجّه لغير الله.

ثم قالت: {فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى}

إنها عادات الناس وقتَها، وهل تكون الأنثى مخلوقًا حُرًّا؟ وهل تكون ذات الوصف الذي طلبته امرأة عمران؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلو كانت ذكرًا فقد تكون بمنظور الجميع حُرًّا من السوى، لكنها أنثى، وكيف تكون الأنثى، بحسب المنطق الذي كان يحكم ذلك التاريخ، حُرًّا مما سوى الله؟

فالله يُقرر في هذه الآية حُريّة المرأة، ولْيسمع العالَم كله: هذه هي حريّة المرأة، فليست حرية المرأة أن تخرج بعُهرها، ولا أن تخرج بسفورها، ولا أن تتحلل من أخلاقها... إنما حرية المرأة أن تكون في العبودية لله وحده.

فإذا تحررت من العادات ومن الهوى ومن النّفْس... فهي صاحبة الحرية كما يُقرر ربّ العالمين.

ثم قال تعالى: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} لأن كل شيء يظهر في الخَلق فإنما هو بقدرة الله وفق إرادته وعِلمه، فلا يُولَد مولود إلا بقدرة الله وفق إرادته وعِلمه:

{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١]

فالله هو الذي خلقها أنثى، وهو الذي استجاب لدعائها، وهو الذي أراد أن يُبرهن للعالَم أن الأنثى هي كالذكر تستطيع أن تكون حرًّا مما سوى الله...

هكذا تكون معاملة الله، وهكذا تظهر الاستجابة.

ثم تقول امرأة عمران: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى} بمنطق قومي.

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} ومريم معناها: خادمة الربّ.

{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٥-٣٦]

فكانت مريم، وما أدراك ما مريم! التي أنجبت روحَ الله وكلمتَه عيسى، الموصولَ الذي يحكم الأرض بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فكان رسولاً إلى قومه، وكان إمامًا وحاكمًا للأرض بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان.

إنه نتيجة أمه مريم، ومريمُ نتيجة معاملة الله.

٧- أيوب: الذي ابتُلي بالمرض وعجز الأطباء عن شفائه، توجّه إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض ومُلكها: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ} [الأنبياء: ٨٣-٨٤] وليت المرضى يستعملونها وصفةً طبية، بشرط أن يقولها القلب لا اللسان، وبشرط أن يقولها بنفس أيوب المتوجِّه إلى الله.

هكذا عامَلَ الله، فكانت النتيجة: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ}.

٨- سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: عندما دعا إلى الله والناس يعرضون عن دعوته، توجّه إلى الله فقال: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المقدمة العَقَدية، إلى النماذج التطبيقية، إلى النتيجة التي نريد من خلالها أن نأخذ الدرس العمليّ:

لا يعني ما أقول أن نُعطِّل الأسباب، لكن علينا أن نُخلِّص قلوبنا من أسر الأسباب، فقلوب الأمة الإسلامية اليومَ أسيرةُ الأسباب.

هذا الدرس تحريرٌ للقلوب، ولا يعني أن نُعطِّل بناء الحضارة، ولا أن نُعطِّل سببًا من أسباب النهضة... لكننا تحوّلنا اليوم إلى عُبّادٍ للمادة، وإلى عُبّادٍ للأسباب، ونحن نقول صباح مساء: **"لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله".**

هذا الدرس يُحرر القلوب، فخذ الأسباب امتثالاً لشريعة الله، وتوافقًا مع حكمة الله، وحرِّر قلبك من أسرها، وأخرِج من قلبك الأسباب واجعلها في يدك، ولا تلتفت بقلبك إلى الأسباب أبدًا.

قال سبحانه: {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ٦٥]

هو الحيّ فلماذا تتوجّه إلى الميت؟

وقال سبحانه: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} أي انقطع إليه بقلبك وروحك.

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} [المزمل: ٧-٩]

وهكذا يتحوّل عَبْدُ الأسباب إلى عبد الله، يُعامل الأسباب بظاهره وقلبُه حُرٌّ عنها، وقلبه متوجّه إلى الله.

إذا كنت تريد حاجةً فانطرح في عتبات الله، واسجد بين يديه، قوُل له في سجودك ما تشاء، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وتكون أقرب إليه وأنت في سجودك، وقبل أن يتأثّر قلبك بالأسباب اسجد لمُسبِّب الأسباب.

هكذا نتعلّم كيف نتعامل مع الله.

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com